الجزء الثاني

أبواب الجزء الثاني

تمهيد:

الباب الأول: حقوق الإنسان في الإسلام

الفرع الأول: منظومة الحقوق.

الفرع الثاني: منظومة الضمانات.

الفرع الثالث: حقوق العدو وضماناتها من اليهودية والمسيحية إلى الإسلام

الباب الثاني: الغزو المستمر منذ القرن الثامن عشر

الفصل الأول: الغزو العسكري والفكري.

الفرع الأول: الغزو العسكري والفكري

الفرع الثاني: الدور المجيد للأزهر

الفصل الثاني: العقيدة السليمة أساس الاقتصاد الناجح

القسم الأول: الإصلاح في تعليم الدين

القسم الثاني: فرع في التكامل الاقتصادي

توصيات عامة

الفهارس

تمهيد

في الربع الأخير من القرن الميلادي الحالي أصدر الجهاز العالمي للأمم المتحدة (اليونسكو) بيانا في مقررات أحالها عليه مؤتمران عالميان للأمم المتحدة (١٩٧٤ – ١٩٧٥) جاء في البيان ما يلي:

١٧.أنه تجب مراعاة الوحدة البشرية وعدم التمييز بين أفرادها في الحياة الكريمة.

١٨.وحدة مصالح الجماعة البشرية والتخطيط لاقتصادها والعدل بين أممها دون تمييز.

وما هو إلا ترديد لما جاء بالقرآن والسنة من أوامر ونواه وهو تبارك وتعالى يقول:

﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾، ويقول ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾، وهو القائل: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾، والقائل: ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾.

***

ومن حجج الإسلام على المستشرقين كتاب من جزءين كبيرين صدرا عن مكتب التربية بالخليج العربي أسهمت فيه دراسات جمهرة من علماء الإسلام أظهرت أن المستشرقين نوعان: نوع مبشر بالمسيحية أو متعصب ضد الإسلام.

ونوع يلتزم في فهم شرائع الإسلام المبادئ التي سنها الرهبان والقساوسة للمسيحية.

***

أسلفنا في تقديم الكتاب أننا جمعنا في الجزء الثاني بين بابين هما الأول والثاني، ليرى القارئ أسباب السمو وأسباب الهبوط معا، ويرى الأسباب الأخيرة مسلطة على الأمة لترجع القهقرى في خصائص مجتمعها وشريعتها، وافدة مع الغزو العسكري والتدهور الفكري الذي يثبط العزائم ويترصد أي صحوة.

والباب الأول من هذا الجزء يعرض شذرات عن (حقوق الإنسان في الإسلام) تظهرنا على سمو الحقوق فيه واتساع مداها "وأنها فطرية تترتب للإنسان بمجرد الميلاد" وأنها حق لكل إنسان ومراعاته واجب على كل إنسان، وكلها من خصائص الشريعة تنبثق من (توحيد الله سبحانه) أي الإيمان.

والإيمان أول أركان الإسلام ومنه تصدر كل عناصر القوة للفرد وللأسرة وللأمة وللدولة – والإيمان هو الأمان. وهو تعالى يقول: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً**﴾ [٢٨١]، والإيمان منه السكينة. والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ** ﴾ [٢٨٢].

والإيمان مصدر القوة والرضا. والله تعالى يقول: ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)**﴾ [٢٨٣]، وهو تبارك وتعالى يقول: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** ﴾ [٢٨٤].

---

(٢٨١) سورة النور: الآية ٥٥.

(٢٨٢) سورة الفتح: الآية ٤.

(٢٨٣) سورة قريش: الآية ٤.

(٢٨٤) سورة الفتح: الآية ٢٨.

الباب الأول

حقوق الإنسان في الإسلام

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

سورة الحجرات الآية ١٣

الفرع الأول

منظومة الحقوق في الإسلام

(إطلاق حقوق الإنسان كاملة من عقالها)

الإسلام آخر رسالات السماء زوده الله تعالى بعناصر الإصلاح والبقاء والنماء وجمع بين الدين والدولة، وبين العقيدة والشريعة، وأعلن أن الإنسان خليفته في أرضه، وأحيا بشريعته ما نزعته الدول القاهرة أو المستعمرة من حقوق الإنسان كما صنع الإغريق والرومان.

في عهد بركليس (٤٥٠ ق.م) كان الإغريق يستعبدون الأجانب ويسترقون الرقيق، ولما غلب الرومان لم يجعلوا للرقيق أي حقوق، وخصوا أنفسهم بقانونهم وجعلوا لغيرهم ما سموه (قانون الأمم) وقسموا الرومان بين "أشراف" و"عامة" للأشراف عقوبات خاصة ولغيرهم عقوبات أشد.. وسرعان ما ألغى الإمبراطور الحريات واستبقاها لنفسه.

***

وورثت الحضارة الأوربية مواريث اليونان والرومان، ولم يستيقظ ضميرها إلا بعد نيف وألفي عام بثورات بدأتها أمريكا وأعقبتها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، وحررت أمريكا العبيد في القرن التاسع عشر وبقيت أوروبة تستعمر شعوب الأرض حتى ألغت الأمم المتحدة نظام الاستعمار، وأبقت للمنتصرين في الحرب العالمية الأخيرة (١٩٣٩ – ١٩٤٥م) أسباب السيطرة على العالم.

والعقيدة الإسلامية تلزم البشر "الإخوة الإنسانية" ولذلك لم يفتح المسلمون بلدا إلا حرروه من غاصبيه، ثم عقدوا المعاهدة لحساب أهله وطردوا غاصبيه، وفي الوقت ذاته سلموا الأرض لأصحابها وحفظوا لهم تقاليدهم ولم يكرهوهم على دين، وبهذا نمت مجتمعات المسلمين، وشهد التاريخ مجتمعات ازدهر فيها أصحاب الديانات الثلاث بالعلم والرخاء والسلام في بلاد المسلمين في آسيا وأفريقيا وأوربة، وبالمساواة الكاملة والحريات والعدل الإلهي والتكافل أو التكامل والنهي عن الحرب إلا للدفاع عن النفس أو الدين، وغير ذلك من خصائص الشريعة الملزمة للأمة وللدولة.

***

وفي هذه الشريعة وجد الإنسان نفسه، وانطلقت طاقاته وأمكن الله جماعة محدودة من أن يقهروا في بضع سنين الإمبراطوريتين اللتين تحكمان العالم، وأن ينشروا في أرض الله أضواء الدين الجديد في بضع عشرات من السنين في القرن الأول، وأن يبلغوا بالعلم في هذه التربة الصالحة بعد قرنين مبالغة التي أشرنا إليها من قبل لتصبح أسسا لعلوم الحضارة العالمية الآن، واحتفظت الحضارة الإسلامية بوصفها أنها "حضارة الإنسان" في مقابل ما يسميه العالم الآن "حضارة المادة أو حضارة الأشياء" أو "حضارة الآلات".

وفي المباحث التالية بعض بيان لبعض خصائص الإسلام:

المبحث الأول

المساواة الفطرية

الحرية والمساواة صنوات وهما حقان لكل إنسان بالفطرة، والله تعالى يقول لكل الناس: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (٢٨٥).

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "لا فضل لعربي على أعجمي. إنما الفضل بالتقوى". فالمساواة حق للإنسان، والتفاضل يكون بالعمل الصالح.

وضرب الرسول ﷺ للعالم مثلا من نفسه يوم وقف يصف جيشه وفي يده قضيب، وخرج سواد بن غفلة وهو شاب عن الصف، فأرشده بالقضيب ليعود إلى الصف، وتوجع سواد، فمد إليه القائد الأعلى القضيب قائلا: "استقد يا سواد".

وفي فتح خيبر لم يجد خادمه أبو رافع لحافا له، فألحفه ﷺ بلحافه أي: أشركه فيه.

وكما سوى بين القائد الأعلى وبين أصغر الجند سوى بين خير الأجيال وغيرها من الأجيال، في فضل الله، حيث قال: "إني في آخر أمتي قوما يعطون من الأجر ما لأولهم، ينكرون المنكر، ويقاتلون أهل الفتن".

بل هو أعطى الأجيال كافة فرصة للتفاضل بالتقوى، حين سأله أبو عبيدة بن الجراح وهو أمين الأمة يا رسول الله، هل قوم خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك؟ فأجابه: "نعم. قوم يجيئون بعدي يؤمنون بي ولم يروني".

وسوى أبو بكر بين نفسه وكل الناس، إذ قبل أن يمتنع عن السعي للرزق مقابل دريهمات من بيت المال يعيش منها، كما سوى بين الناس جميعا في العطاء.

وأعلن عمر بن الخطاب هذا الدستور الصارم بالقول وبالفعل، بنص تتناقله كل دساتير العالم، إنصافا لمصري ضربه ابن لوالي مصر عمرو بن العاص فسمع الشكوى وفي حضرته

---

(٢٨٥) سورة الحجرات، آية: ١٣.

عمرو فاتح مصر. وأمر المصري أن يضرب ابن عمر فضربه.. وقال عمر لعمرو (بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)؟!

وتكررت صرامة الحكم حين شكا رجل من العامة أميرا من أمراء الشام لطمه إذ وطئ إزاره في الطواف، وعالن عمر الأمير بالقصاص، فاستأخر للغداة، وهرب بفرسانه إلى القسطنطينية في الليل، وتنصر.

وللمساواة وجه آخر: هو المساواة بين "النصفين"، ليعتدل بهما ميزان "الكل". هو مساواة المرأة بالرجل، وإن شئت قلت تحرير المرأة.

المبحث الثاني

المساواة الإنسانية وتحرير المرأة

١- في عصور الظلمات تكونت نظريات في شأن المرأة تقرر أنها أداة للشيطان، حرضت آدم على العصيان. وقال القساوسة الأولون: "المرأة بوابة الشيطان وطريق الشر، ولدغة الحية". وتوالى ظلمها حتى استبعد الناس أن يكون لها روح علوية، وأوشك بعض أن يسووا بينها وبين الحيوان الذي ليس له روح بعد فناء جسده، وطالبت الكنيسة رجالها بعدم الزواج، ونشأ نظام الرهبنة.

٢- واعتبر الرومان وصف الأنثى دليلا على عدم الكفاءة، واستمرت فاقدة الأهلية بعد الزواج – وفي القرن الخامس الميلادي اجتمع في فرنسا مجمع (ماكون) للبحث فيما إذا كان للمرأة روح أم هي جسم بلا روح؟ وانتهى المجمع إلى أنها "خالية من الروح الناجية من العذاب" ما عدا روح أم المسيح عليه السلام.

وفي القرن السادس الميلادي دار البحث عندهم لينتهي إلى أن المرأة إنسان خلق لخدمة الرجل.. واستقر هذا التفكير في أوربة لنجد المرأة يقترن اسمها باسم زوجها يوم تتزوج، بل إن القانون الإنجليزي حتى عام ١٨٠٥م يبيح للرجل أن يبيع زوجته بأي ثمن، كما أبيح للنبلاء في بعض الأصقاع الاستمتاع بزوجات فلاحيهم يوما بعد الزواج.

٣- وفي القرن الرابع عشر كتب فارس من الفرسان في فرنسا كتابا بعنوان: (تعليم بناتي)، وفيه يقول: لما كان القانون يبيح ضرب الزوجات ضربا مبرحا لتصحيح مسارهن فيجب على الأب أن يمارس هذا العقاب عمليا على نطاق واسع مع بناته حتى يتعودون عليه"، وأشار إلى أن الكنيسة لما تدخلت في هذه العقوبة كان تدخلها قاصرا على حجم الأداة التي تستعمل.

٤- وفي الشرائع الآسيوية كانت المرأة ملكا للأب، ثم الزوج وحرمت من حق الملكية والميراث، ولم يكن لها شخصية قانونية، وعلى الجملة اعتبرت المرأة "لعنة" قولا بأن حواء أغوت آدم فأنزلته من الجنة!!.

٥- ولكن الإسلام منذ نزوله في القرن السابع الميلادي يعلن للمرأة أهليتها كالرجل، ويسوي بينهما كل المساواة إلا فيما اختلفت فيه طبيعاتهما. ولهذا احتفظت باسمها وشخصيتها

وذميتها المالية، بل يعلن رسول الله ﷺ أن حسن "تبعل المرأة" لزوجها يعدل كل ما يعمله الرجل، وهو القائل: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقا".

وليس مصادفة أن يدين أئمة الفقه الأربعة لأمهاتهم بتنشئتهم وهي شهادة للمرأة في أسرتها – والقرآن ينفي عن المرأة مهمة إغواء آدم، بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً** ﴾ (٢٨٦) ثم حمل آدم المسئولية صريحة حيث قال: ﴿ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** ﴾ (٢٨٧) وأعلن سبحانه وتعالى أن الرجل والمرأة "زوجان" من نفس واحدة. وجعل المرأة آية من آياته حيث قال: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (٢٨٨).

ومن المعدلة أباح للزوج الطلاق، وأباح لها طلبه إذا قامت دواعيه، وجعل لها على الرجل حقوق النفقة والمهر وقرر لها الميراث، وميزها ليتكاثر إحصان النساء والرجال، وتتسع فرص الإنفاق عليهن بأن جعل لكل أربعة نساء أن يتزوجن برجل واحد، وقال ﷺ: "أبغض الحلال إلى الله الطلاق" والله سبحانه وتعالى يقول عن الكارهين والكارهات: ﴿ **فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ (٢٨٩). ويفسر ذلك قوله ﷺ: "لا يفرك" "يبغض" مؤمن مؤمنة. إن كره منها خلقا رضي منها آخر".

ولما استشار رجل أمير المؤمنين عمر في طلاق امرأته لأنه يكرهها قال له: ألم تبن البيوت إلا على الحب؟!

وللكمال بن الهمام كلمة عصرية أبدا (إذا لم يكن حاجة للطلاق فهو محض كفران نعمة وسوء أدب).

وقد نشرت الصحف العالمية قول ولي عهد إنجلترا يدلي به في إحدى خطبه سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م: "إن حقوق النساء في الإسلام من حيث الملكية والميراث، وتأمين حياتهن بعد الطلاق، وحقهن في مباشرة الأعمال الحرة مثل التجارة وردت في نصوص القرآن منذ ١٤٠٠

---

(٢٨٦) سورة طه: الآية ١١٥.

(٢٨٧) سورة طه: الآية ١٢١.

(٢٨٨) سورة الروم: الآية ٢١.

(٢٨٩) سورة النساء: الآية ١٩.

سنة وهي توضح تفوق الإسلام على الغرب من هذه الناحية، حيث إن هذه الحقوق في بريطانيا حديثة العهد، يعود تاريخها إلى جيل جدته "الملكة الأم".

***

ويقول صاحب الشريعة لجيشه: "لا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا صغيرا، ولا امرأة".

ويبدأ الصديق بالنساء في وصاته لقائد جيشه (إني موصيك بعشر.. لا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما، ولا تقطع شجرا مثمرا، ولا تخرب عامرا..).

والأم الصالحة تغرس خصال العمل في الأسرة، وقد أمر رسول الله به حيث يقول: "نعم لهو المرأة في بيتها المغزل".

ولما نادى ابن رشد في القرن الهجري السادس بخروجها للعمل ليزداد المسلمون قوة كان يذكر بحقيقة يتباطأ فيها المسلمون.

وتألق دور المرأة في مجالس العلم فلهن يوم يجلس إليهن فيه الرسول ﷺ. وبرز في التاريخ دور النساء المعلمات بدءا من أم المؤمنين عائشة، لنجد الإمام السيوطي في القرن العاشر الهجري والسابع عشر الميلادي يتلقى العلم على ستين امرأة.

وتجلت حرية الرأي والقول يوم خطب أمير المؤمنين عمر على المنبر يأمر المسلمين بأن لا يزيدوا في المهور عن أربعمائة درهم، ومن زاد ألقيت زيادته في بيت المال، فراجعته امرأة في آخر الصفوف قالت: أليس الله يقول: ﴿ **وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً** ﴾ (٢٩٠) قال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر، اللهم اغفر لي.

وقال: كل إنسان أفقه من عمر!!

واستمر يقول: أيها الناس من شاء أن يعطي من ماله ما أحب وكانت نفسه طيبة فليفعل..

وفي نظام الأسرة نجد المرأة "سيدة البيت".

---

(٢٩٠) سورة النساء: الآية ٢٠.

سأل أعرابي رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ فأجاب: "أمك، ثم أمك، ثم أمك" وبعد ذلك قال: ثم "أبوك". وهو القائل: "يد المعطي العليا، ثم أمك وأباك، ثم أختك وأخاك، ثم أدناك أدناك".. وجاءه أعرابي يقول: إن لي بنات، وأنا أدعو عليهن. قال ﷺ: "لا تدع، فإن البركة في البنات، هي المجملات عند النعمة، والممرضات عند الشدة، ثقلهن على الأرض، ورزقهن على الله".

ومن أمهات المؤمنين من أطلق عليها الفقهاء "مستشارة النبي" لجدواها في المشورة غير مرة.

وجدارة المرأة بالقضاء لا تدفعها حجج الكارهين، يراها ابن حزم (٤٥٦هـ) جديرة بكل أمور القضاء مثل الرجل، بل يراها حقا للعبد مثل الحر. ومن قبله جوز لها كل القضاء الإمام الطبري (٣١٠) وجوز لها أبو حنيفة بعض أبواب القضاء.

وأي إعظام للمرأة كإعظامها إذ يضرب الله منها مثلين للذين آمنوا رجالا ونساء قال – جل ثناؤه –: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ**﴾[٢٩١].

وحظ مصر من هذين المثلين أعظم الحظوظ بامرأة فرعون ملك مصر، ومريم البتول إذ جاءتها بابنها تلوذ بها من المؤامرات عليه.

وفي خطبة الوداع... فوق جبل عرفات أهمت رسول الله حقوق النساء فوصى بهن الأمة قائلا "إن لنسائكم عليكم حقا أخذتموهن بأمانة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا".

المبحث الثالث

حرية النفس والقول والرأي والدين

والحرية والمساواة يتجاريان كأنهما عجلتان تحملان موكب الإسلام، وكلما أصابهما الوهن أبطأ خطو المسلمين في التقدم، والمساواة أخوة، والحرية قوة محركة للذات، محررة للطاقات. إن في التربية وإن في العلم وإن في الحرب وإن في السلم.

---

(٢٩١) سورة التحريم: الآيتان ١١، ١٢.

والحرية تحمل معنى الانعتاق من الاستعباد، وهي فرع باسق ينتجه توحيد الخالق وإرجاع الأمر كله إليه، فلا عبودية إلا له، والناس تحت لوائه نظراء، وكل تفريط في هذه النعمة الفطرية وجه نقص للذات، وهي حريات: في النفس، والدين والعمل، والقول، والإرادة، وفي البيعة لولي الأمر.

وتتجلى الحرية في الميدان الذي استحوذ على أكبر قدر من الاهتمامات الأم وهو الدين – وللإسلام فيه سبق على الديانات الأخرى بنصوص صريحة – ناهية وآمرة: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ** ﴾ [٢٩٢] ويقول الله لرسوله ﷺ: ﴿ **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [٢٩٣] ويقول – ليبصر بحرية الاختيار وحسن الجدال – ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [٢٩٤].

ومن التطبيق الدقيق لهذه المبادئ جاءت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عجوز من أهل الكتاب لها حاجة قضاها، ثم بدا له أن يشير عليها بالإسلام، ولم يكد ينتهي من الإشارة حتى انتصب واقفا يشهد الله: "اللهم نصحت ولم أكره".

والحرية الفكرية مطلقة للمسلم ولغيره – لذهنه، وقوله، وعمله – وبهذا بلغ الفكر مبالغه، وتعددت الأفكار والأقوال،.. يقول الغزالي (٥٠٥) هجرية: الأصول ثلاثة: الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر. وما عداه فروع، ولا تكفير في الفروع أصلا إلا في مسألة دينية، وهي: أن ينكر أصلا دينيا من رسول الله بالتواتر. ولكن في بعضها تخطئة كما في الفقهيات، وفي بعضها تبديع (كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة).

وبهذا اتسع العلم وسلم خطو المسلمين فيه بالاجتهاد، وقد حثهم الرسول عليه حين أثنى على كل مجتهد أصاب أو أخطأ.

والحقيقة ضالة المؤمن تسعى إليها المذاهب والمواهب بحرية التعليم والتعلم، وحرية السوق، وسعر السوق، وحريات المهن والعمل والتعامل في أمة معتصمة بحبل الله يقول لها

---

(٢٩٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢٩٣) سورة يونس: الآية ٩٩.

(٢٩٤) سورة النحل: الآيات ١٢٥ – ١٢٨.

الرسول الكريم: "كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله" ويقول: "ظهر المسلم حمى إلا في حد أو حق".

وفي حرية القول والبدار بالعمل أمره عليه الصلاة والسلام: "لا يكن أحدكم إمعة، يقول: إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا مساءتهم".

المبحث الرابع

تحرير الرقيق

كان الرقيق قوة العمل قبل أن تتكاثر اليد العاملة، وكان الرومان يسترقون المدين الذي يعجز عن الوفاء بدينه، كما يسترقون السراق. ولما نزل الإسلام أبطل هذه المخزاة، وقضى بمنح المدين نظرة الميسرة، وفتح له الطريق للسداد، منه أو من المجتمع، لتبقى في الأمة أمانة الإقراض والاقتراض والتكافل.

ونظر الإسلام إلى الرقيق نظرة كريمة، عبر عنها الفقهاء بأن "الشارع متشوف إلى الحرية" وأن أفضل الرقاب أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها. وطرائق التحرير: تبدأ بتحريم تكليف الرقيق ما لا يطيق، وإلزام السيد أن يطعمه مما يطعم، ويلبسه كما يلبس، وأن لا يقول صاحبه عنه (عبدي أو أمتى) ولكن يقول: (فتاي وفتاتي) وأن من عذبه فضربه أو لطمه فقد حرره، وأن من سبه ففقد مارس خطة جاهلية.

ولما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام أبا مسعود يضرب غلامه قال له: "اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام" فأعلن عتقه.

والقرآن الكريم يحكم بأن من يفك رقبة رقيق يجتاز العقبة إلى الجنة.

وهكذا أصبحت الأمة حرة إذا ولدت لسيدها؛ فأمست "أم ولده"..

وأمسى تحرير الرقيق من صاحبه حقا على الأمة بوجوه الصدقة التي لا تحصى مناسباتها ولقد أحصوا لواحد من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه حرر في حياته ألف عبد.

وفي فجر الإسلام اشترى الصديق "بلالا" ليحرره من التعذيب والكفر، وسنراه طليعة المؤذنين بالصلاة، بل سنراه في موقف جليل في التاريخ الفقهي يجادل أمير المؤمنين عمر في الفقه على رأس القائلين بأن الأرض في البلد المفتوح تدخل في الغنيمة، وفي الجانب الآخر أميرا المؤمنين عثمان وعلى وكثرة الصحابة.

ولما فتح الله الشام لعمر طلب أصحاب بيت المقدس أن يكون الاستسلام له، فسار إليها ووقع عهده الأشهر لبيت المقدس، ودعا بلالا ليؤذن له، فبلال مؤذن رسول الله، ومؤذن يوم فتح بيت المقدس.. وإليك من طرائق التحرير:

١- هو مصرف من مصارف الزكاة، وهي قرينة للصلاة، وهما تلوان للشهادة بالله وملائكته وكتبه ورسله.

٢- وهو حق للرقيق نفسه إذا دفع ثمنه لصاحبه، والقرآن يوصي صاحبه بالمساهلة ويوصي الأمة بالمساعدة في هذه (المكاتبة). ولما ماطلت سيدة في قبض الثمن أمر عمر بأن يودع الثمن بيت المال، ليعجل بتحريره، ولها أن تستأدي مالها من بيت المال حيث أودع.

٣- بل ساعد الرسول صلى الله عليه وسلم بيديه الكريمتين في أداء الثمن عندما كاتب سلمان الفارسي سيدته، فغرس لها مع سلمان غراسا، فدخل عمل الرسول في ثمن هذه المكاتبة، لينعم سلمان بقوله صلى الله عليه وسلم "سلمان منا أهل البيت" وسنراه من بعد حاكما في وسط آسيا على أصفهان.

٤- ونظام الكفارات في القرآن يجعل عتق الرقبة واحدا منها، وهي تتجلى في مطهرات شتى للذنوب، وفي تصحيح الأوضاع ومنها دية القتل الخطأ.

٥- ومن التيسير لها أبيح للسيد أن يعلن حرية الرقيق من بعده، وفي ذلك حفاظ على آصرة الود بين الرجل ومولاه حتى لا يرثه من لا يعرف قدره.

٦- وتحرير أم الولد بميلاده يزيدها تكريما. وممن يذكرهم التاريخ بذلك أعلم الخلفاء في الدولة العباسية، وهو المأمون.

٧- والتحرير من الصدقات في الصدارة. وكل مشاركة فيه صدقة.

تحرير الأرض:

ومضت سنة المسلمين في التحرير إلى غايتها فرأيناها تحرر "أرض الله" فتجعلها ملكا لعباده، وتنزعها من أيدي الغاصبين.. وهذا تحرير للأرض وللمالك الجديد. عقدوا صلحهم لحساب أهل الشام، لا الرومان الذين ملكوا الشام، فجعلوهم دخلاء، ولكنهم ضمنوا لهم حرية البقاء، وإن بقوا فبقاء الأجانب.

وعقدوا الصلح لحساب أهل مصر لا الرومان، واعتبروهم أجانب، فتركوا أرض المصريين للمصريين.

وعقدوا الصلح مع أهل الحيرة لا مع الفرس.. وصبروا أهل البلاد أحرارا وملاكا. وصنعوا الصنيع ذاته في أرض فارس وما تلاها من أقاليم آسيا، ملكوها لواضع اليد عليها وفرضوا عليها الخراج، وكان مرجع المسلمين آيات القرآن الكريم..

كانت الأرض ملكا للإمبراطور أو ملكا لكسرى، والناس عبيدهما بالحق الإلهي المزعوم..

المبحث الخامس

حرية التنقل، والهجرة، والسعي في الحياة

يأمر الله عباده في سورة الجمعة بالانتشار في الأرض بعد الصلاة ابتغاء فضل الله: **﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [٢٩٥].

وهو جل ثناؤه يفضل المجاهدين بأموالهم وبأنفسهم على القاعدين، بل يؤاخذ الذين يركنون إلى الدعة فلا يضربون في الأرض أو يجاهدون، يقول: **﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾** [٢٩٦].

ويقول: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾** [٢٩٧] ويبشر المهاجرين ويقول: **﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ**

---

(٢٩٥) سورة الجمعة: الآية ١٠.

(٢٩٦) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٢٩٧) سورة النساء: الآية ٩٧.

اللَّـهُ غَفُـوراً رَحِيمـاً﴾ [٢٩٨] وهـو تعـالى يضـيف إلـى المغفرة التيسـير بقولـه: ﴿ **وَإِذَا ضَـرَبْتُمْ فِـي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [٢٩٩].

والهجرة للرزق، والضرب في الأرض، أو المضاربة، بالمال أساليب أتقنها العرب أفرادا وقبائل من قبل الإسلام، وليس في الفقهاء أحد لم يذم القعود عن السعي للرزق.

ولـولا التجـارة لمـات جوعـا الكثيـرون مـن سـكان المـدن أو البـدو المـوغلين فـي فلـوات الصحراء، ولولا التجار الكبار الذين جاءوا بقوافلهم لنجدة المسلمين لأصيب كثير في حياة رسول الله، وأهلكوا في المجاعات.

بهذا كان لجلاب الطعام من حواشي الأقاليم مقام في الناس وفي الأسواق، وكان احتكار الطعام في الحرام إلحادا..

يقول أمير المؤمنين علي لواليه على مصر عن تجارة الداخل والخارج: (ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات، وأوص بهم خيرا، المقيم منهم والمضطرب بماله، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح، فإنهم سلم لا تخاف بائقته. وتفقد أمرهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم من ذلك أن في كثير منهم ضيقا فاحشا، وشحا قبيحا، واحتكارا للمنافع، فامنع من الاحتكار).

---

(٢٩٨) سورة النساء: الآية ١٠٠.

(٢٩٩) سورة النساء: الآية ١٠١.

المبحث السادس

تقييد الحقوق لحفظ حقوق الأمة

لم يرض عمر للصحابة الكبار أن ينتشروا في الأقاليم المفتوحة، حرصا عليهم وكان بحاجة إليهم، ليشيروا عليه، ولفتيا المسلمين، وهو مشغول بالقيادة العليا للقادة الذين يفتحون العالم، وكان يجيئه السائل فيما يهم الجنود، فيقول له: هؤلاء عندك بالمسجد فاسألهم..

وكان يخرج إلى ظاهر المدينة ينتظر البرد وهي تتابع بانتصارات قواده، والأرزاق دارة والقوافل كفيلة بميرة المدينة، ولا يسلم أحد من ملاحظة عمر.

وذات يوم سمعت ضجة ورجة لجمال تسير في الطريق فسأل عمر فقيل له: عير تحمل مهر طلحة بن عبيد الله لزوجته قال عمر: ردوها فردوها ثم أطلقها في الصباح وقد فصلنا الأسباب من قبل.

وقد اختار عمر طلحة في الستة الذين رشحهم للمسلمين ليختاروا خليفة منهم.

واختار الزبير في الستة، وكانت له مجزرة للذبائح، ولما أمر عمر أن يأكل الناس اللحم يوما ولا يأكلوه يوما، كان عمر يذهب بنفسه إلى المجزرة ليرى تنفيذ أمره.

ورأى رجلا ذات يوم ناتئ البطن، فضرب عليها وقال: (هلا طويت هذا لجارك وابن عمك؟).

وسمع في عسه بالليل امرأة تتغنى بنصر بن حجاج فدعاه، وأمر بحلق شعره فصار أجمل، فنفاه إلى العراق.

أما عزله خالد بن الوليد وهو في قمة نصره، ومحاسبته له فظاهر منهما "إخضاع السلاح للوشاح"[٣٠٠]، وإعلام الناس أن النصر من عند الله، لا بعمل الرجال.

---

(٣٠٠) ترجمة تعبير لاتيني يراد به أن تكون السلطة في يد المدنيين لا العسكريين.

الحرية للمنافقين:

كانت المدينة ملأى بنشاط اليهود، وعاهدهم عليه الصلاة والسلام فلم يفوا بل ألبوا عليه الأعداء وتواطأوا معهم، وكان في المجتمع منافقون لكن الحنيفية السمحة تسعهم حتى يظهر غدرهم في الوقت العصيب، ولهم سورة في القرآن الكريم يظهر منها أن أمرهم مفوض لرسول الله تسمى سورة (المنافقون).

وكان صلى الله عليه وسلم يستغفر الله لكبيرهم حتى أمره الله ألا يستغفر لهم.

وذات يوم جاءه واحد من المسلمين يقول: إنه يعرف المنافقين، وإنه كان واحدا منهم. فقال له: "من جاءنا كما جئتنا قبلناه، ولا تهتك على أحد سترا" وهو صلى الله عليه وسلم القائل "أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر".

والله تعالى ﴿ **غَافِرِ الذَّنْبِ** ﴾ (٣٠١) و ﴿ **التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ (٣٠٢).

ومن الفقهاء من يسمى الاستغفار (الممحاة) التي تمحو الذنوب. والله تعالى ينهي عن التجسس بأشكاله المختلفة والمسلمون يبطلون دليله، وفي طليعتهم عمر.

---

(٣٠١) سورة غافر: الآية ٣.

(٣٠٢) سورة التوبة: ١٠٤.

الفرع الثاني

منظومة الضمانات

المبحث الأول

العدل

العدل حق فيه الضمان للحقوق ومن ذلك يتصدر الضمانات.

والعدل: صفة الله تعالى وميزانه في أكوانه: يقول تبارك وتعالى: ﴿ **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** ﴾ (٣٠٣) ويقول: ﴿ **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ (٣٠٤).

وظاهر في نقوش المصريين الأولين قبل بناء الأهرام واختراع الكتابة، ذلك الرسم السابق بالحضارة الإنسانية وهو رسم الميزان أي: التقرب إلى الله بالعدل..

والفقهاء يقولون: (الفضاء تلو النبوة) لأنه تطبيق دقيق للشريعة، وبالعدل الإسلامي دخل الناس في دين الله أفواجا، فهو عدل في السلم وفي الحرب، وفي توزيع الحقوق للغريب والقريب، ومع الحب والبغض..

واحترام الحريات عدل، ومراعاة الضعيف والقوي أو الصاحب أو العدو عدل. وفي المعاملات الدارجة مظاهر للعدل والإحسان ليس لها حصر.

لقد أسلم اليهودي حين رأى آية العدل بينه وبين أمير المؤمنين علي في قاعة الجلسة وفي إدارتها وفي الحكم على علي وهو ولي الأمر. وكيف لا يدخل إنسان في الإسلام إذا رأى

---

(٣٠٣) سورة الرحمن: الآية ٧.

(٣٠٤) سورة هود: الآية ٨٥.

المسلمين في معاهداتهم، وفي عهودهم يراعون حقوق المغلوب وينصون عليها دون أن يطلبها. ولم نسمع في حقب التاريخ أن إنسانا أكره على الإسلام.

كانت يد أبي جعفر المنصور مؤسس الدولة العباسية مخضوبة بدماء العظماء من أعوانه أو أعدائه، لا يمنعه الحفاظ على دولته مانع، ولما بلغه القضاء ضده لم يجزع، بل صاح صياح الفرح: ملأتها عدلا، وأصبحت قضاني تردني إلى الحق.

ولما دخل هولاكو بغداد في خضم من الدم سأل العلماء: أيهما تفضلون الحاكم الكافر العادل أم الحاكم المسلم الجائر؟

واجتمع رجال المذاهب الأربعة ووضعوا خطوطهم بتوقيعاتهم بأن الكافر العادل أفضل. فلا تتساءل لماذا دخل قوم هولاكو في الإسلام؟!

والله تعالى: ﴿ **يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ﴾ (٣٠٥).

والمسلمون يضعون العدل في المقام الأول. ولقد اشتهر عمر بالعدل حتى يقال: (عدل عمر) أكثر مما يقال: (فتوحات عمر).

نهي عن طواف الرجال مع النساء، ورأى رجال بعد ذلك يطوف بينهن، فخفقه بدرته.

قال الرجل: والله إن كنت أحسنت فقد ظلمتني، وإن كنت أسأت فما علمتني.

قال أمير المؤمنين: أما شهدت عزمتي ألا يطوف الرجال مع النساء؟

قال الرجل: ما شهدت لك عزمة.

فألقى عمر الدرة إلى الرجل وقال: اقتص.

قال الرجل: لا أقتص اليوم.

قال أمير المؤمنين: فاعف عني.

قال الرجل: لا أعفو.

---

(٣٠٥) سورة النحل: الآية ٩٠.

وافترقا. وتلاقيا في الطواف في الغد، فتغير وجه عمر.

قال الرجل: كأني أرى ما كان مني قد أسرع فيك؟ ثم قال: فاشهد الله أني عفوت عنك.

وفي قضية لعمر ذاته، قضى أبو بكر بين عمر وبين جدة حفيد له أراد عمر أن ترجع إليه حضانته، فترافعا إلى أبي بكر فقضى عليه وقال له: (ريحها وشمها أحب إليه). والمعاهدات في الإسلام عقود. ولذلك راعى الخلفاء الله في العدو وهم يعقدونها، وأعطوا أصحاب البلد حقوقهم فحرروهم من استعباد الفرس والروم بعد انتصارهم على المغتصبين لبلدانهم.

المبحث الثاني

القضـاء

يقول عمر بن عبد العزيز: (الوالي ركن، وصاحب المال ركن، والقضاء ركن والركن الرابع أنا).

والمسلمون في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمون منه الفضل بين حمل الرسالة السماوية وبين وظيفة القضاء. فأعلن أنه يقضي لمن قدم له الحجة، وهو بالتعبير الفقهي (القضاء بالظاهر) وكان يقول: قاض في الجنة، وقاضيان في النار، قاض عدل في قضائه فهو في الجنة. وقاض علم الحق فجار فهو في النار. وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول: لا أعلم، فهو في النار".

واشتهر الورع عن ولاية القضاء، حتى ولي أولو الأمر بالقوة بعضا، وذات يوم دخل فقيه على أهل بيته يقول لبنته: اليوم ذبح أبوك بغير سكين!! فعلموا أنه ولي القضاء..

ولما دعا أمير المؤمنين عثمان عبد اله بن عمر فعرض عليه القضاء فرفض، قال أمير المؤمنين: وما تكره من ذلك، وكان أبوك يقضي؟!

قال: كان أبي يقضي، فإن أشكل عليه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل وأنا لا أجد من أسأله!!

وذاع في المسلمين قول عمر بن عبد العزيز – حفيد عمر من جهة أمه: (سبع إذا فات القاضي واحدة منهن كان فيه وصمة: العقل، والفقه، والورع، والنزاهة، والصرامة، والعلم، والحكم).

وكثيرا ما يقول القاضي المسلم: اللهم إني أعبدك بقضائي.

والله تعالى يأمر بالعدل، ويضيف إليه الإحسان بمعنى الإتقان أو معنى الرحمة.

يقول أهل أوروبة: "انظر كيف تصدر الأحكام في أمة تر مقدار حضارتها".

وما أعظم الحضارة في الإسلام: الرسول الأعظم هو القاضي الأول، والخلفاء الراشدون الأربعة قضاتها بعده.

قضى أبو بكر ضد عمر، وقضى عمر ضد نفسه إذ بصره على بمسئوليته فعزم عليه ألا يبرح مجلسه حتى يفرض الدية على قومه (بني عدي).

وقضى عثمان لعلي ضد طلحة بما كان من قبله في زمن عمر.. وفي قضاء علي أعاجيب. وللقضاء في الإسلام أسباب مجد تستعصي على الاستقصاء منها:

– أنه يتولى تسديد الخلفاء ومن عداهم إلى الحلال والحرام، وأن الخليفة إذا حضر الجلسة تساوي مع خصمه أدق المساواة.

– ومنها: أن الفقه الإسلامي قوام القضاء حتى اليوم، وبهذا ازدهر الفقه واشتهر عدل القضاء حتى صيرت الأمة أصول الفقه أصولا للفكر الإسلامي كله.

– ومنها أن ساحة القضاء شهدت ميلاد أصل الاجتهاد (القياس) وعليه جرت (أطوار) الحضارة الإسلامية، وبه أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام في حديثين لعمرو بن العاص، ولمعاذ بن جبل، إذ ولاهما القضاء، وسأل كلا منهما: بم تقضي؟ فأجابا: بالقرآن والسنة، والاجتهاد عند عدم وجود النص.

– ومنها: قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظاهر والحجة المثبتة، ومن حرية الاجتهاد حرية الاختلاف، ووجوب العمل بما ينتهي إليه المجتهد في شأن نفسه.

المبحث الثالث

ولي الأمر

ولي الأمر: ضمانة أخرى للعدل وحسن القضاء.

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الدولة الإسلامية ليعلم الدنيا إن الإسلام دين ودولة تلزم الناس بأحكامه، وعلى ذلك كانت لولي الأمر الطاعة، إلا أن يرى المسلمون منه كفرا بواحا، وهم مأمورون بأن يؤدوا إليه حقوقه، ويسألوه حقوقهم.

يقول صلى الله عليه وسلم: "سيكون عليكم أمراء يفسدون، وما يصلح الله بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم أجر وإن أساءوا فعليهم الوزر" ويقول: "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي" ويقول في موازنة ذلك: "أيما عبد يسترعيه الله رعية يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة".

وهو ينهى عن التعصب: جاءه معاذ بن جبل برجل قال عن سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي: إنهم ليسوا من قوم النبي. فنادى: (الصلاة جامعة) وخطب الجمع بقوله: "أيها الناس الأب واحد، والرب واحد، والدين واحد، وليست العربية من أحدكم باب أو أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي".

والثلاثة من أجناس مختلفة، يتلون القرآن في صلاتهم، وقد نزل بلسان عربي.. والإسلام وطن، والمواطنة لحمة تضم الأمة، ويشرح ذلك قوله إذ رفع إليه في غزوة بني المصطلق أن مهاجرا وأنصاريا اختلفا، فنادى كل منهما جماعته لنصرته، فقال صلى الله عليه وسلم: "ما بال دعوى الجاهلية دعوها فإنها منتنة، ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما، فإن كان ظالما فلينه، وإن كان مظلوما فلينصره".

يقول الإمام على لواليه على مصر: (وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك إليهم، وميلك معهم. واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى لبعضها عن بعض.

إن الناس ينظرون من أمورك مثل ما كنت تنظر في أمور الناس قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم).

و(إن أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك).

وتواصي الأمة مع ولي الأمر يبدأ بالهيبة والمحبة، وكثيرا ما كان الوالي كراكب الأسد يهابه الناس، وهو لمركوبه أهيب. والناس تطيعه قدر ما أطاع الله فيهم والنصح له واجب عليهم.

سئل ابن حنبل عن ابن أبي ذئب، فقال: "كان رجلا صالحا، يأمر بالمعروف، وكان يشبه بسعيد بن المسيب".

والشافعي شيخ ابن حنبل يجل سعيد بن المسيب وابن أبي ذئب معا، والأول رفض أن يزوج بنته من ولي العهد عندما طلب إليه عبد الملك بن مروان تزويج الوليد منها، وآثر عليه تلميذا فقيرا من تلاميذه.

والشافعي يضرب مواقف ابن أبي ذؤيب مثلا للعالم في مواجهة الحكام.

ويروي عن ابن أبي ذئب:

١- خطب والي المدينة فأطال، ولما نزل صاح به محمد بن عجلان يا هذا اتق الله، تطيل بيانك وكلامك على منبر رسول الله ﷺ؟! فأمر الولي بحبسه، فدخل عليه ابن أبي ذئب، فبادره الوالي بقوله: أما يكفي ابن عجلان أن يأمر فيما بيننا وبينه، فتصير على ما يأمرنا به حتى يصيح بنا على رءوس الناس فنستضعف؟! قال ابن أبي ذئب: ابن عجلان أحمق.. هو يراك تأكل الحرام، وتلبس الحرام، ويقول: لا تطل بيانك وكلامك على منبر رسول الله!!

قال الوالي لجند: أطلقوا ابن عجلان، ما عليه من سبيل).

٢- ويحدث الشافعي تلاميذه عن محمد بن سافع أنه قال: (إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر وفيه ابن أبي ذئب، ووالي المدينة: الحسن بن زيد (.. بن علي بن أبي طالب) فأتى الغفاريون فشكوا إليه شيئا من أمر الحسن، وقال الحسن: يا أمير المؤمنين: سل عنهم ابن أبي ذئب فسأله، فقال: أشهد أنهم أهل تحكم في أعراض المسلمين، كثيرو الأذى لهم.

فقالوا: سله عن الحسن، فسأله، فقال: أشهد بأنه يحكم بغير الحق، ويتبع هواه.

قال محمد بن شافع: فجمعت ثيابي – والسياف قائم على رأس أبي جعفر – مخافة أن يأمر به فيقتل، فيصيبه دمه ثوبي.

قال أبو جعفر: قد سمعت يا حسن.

قال الحسن: سله عن نفسك.

قال ابن أبي ذئب: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟

قال: والله لتخبرني.

قال: أشهد أنك أخذت المال من غير حقه، وجعلته في غير أهله.

قال محمد بن شافع: فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفاه فجمعت ثيابي مخافة أن يقتله، فيصيب دمه ثوبي.

قال أبو جعفر: والله لولا أنا لأخذت أبناء الفرس والروم والترك والديلم هذا المكان وخلى قفاه وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك.

قال ابن أبي ذئب: أنا والله أنصح لك من المهدي (ابن أبي جعفر).

المبحث الرابع

الشورى

العدل في الإسلام هو عدل السماء لا عدل الأرض.

ومن الوصف الإلهي للعدل في الإسلام كان الخلفاء الراشدون والملوك يحضرون أمام القضاء مدعين أو مدعي عليهم، وكثيرا ما قضى القضاء ضدهم.

والأمة سيدة إذا كان الإمام في خدمتها. يلتمس المشورة لديها فتشاركه في حكم نفسها. قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾ (٣٠٦).

فهو تبارك وتعالى يضع الشورى بين إقامة الصلاة والإنفاق من الأرزاق، لكنها فرضت فرض عين في سورة آل عمران، ووضعت مع الرحمة والسماحة وتأليف القلوب، ومع العفو وطلب المغفرة للمشيرين وإن أخطئوا حيث قال في خصوص بعض المحاربين في غزوة أحد: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ (٣٠٧).

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يستشير زوجه، ويستشر صحبة ويحدد لوزيريه حقا في أن ينزل عند رأيهما. قال لأبي بكر وعمر: "لو اجتمعتا في أمر ما خالفتكما".

وفي معركة الخندق التي تلت وقعة أحد كانت المشورة الشهيرة لزعيمي الأوس والخزرج برفض الصلح، فقبل مشورتهما، لينصره الله نصره المؤزر، وولى العدو فرارا، ولم تراوده فكرة غزو المدينة إلى الأبد.

ولقد أخذ صلى الله عليه وسلم بشورى صحبه عن معسكر الجند في وقعة خيبر، مثلما أخذ بشوراهم في معركة بدر.

---

(٣٠٦) سورة الشورى: الآية ٣٨.

(٣٠٧) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

وأبو هريرة يحدث أن النبي كان أكثر قومه مشورة لهم. ومن أجل شورى أم المؤمنين أم سلمة يوم صلح الحديبية لقبها المسلمون "مستشارة رسول الله".

وكل طريق يتحقق بها إبداء الرأي لولي الأمر طريقة منجحة للشورى، وليس بكاف أن يكون لولي الأمر جلساء أو نصحاء، وإنما الكفاية في أن تحس الأمة أنها تستشار أو تشير، وأن عظائم الأمور لا تمضي في غيبتها، وأن ولي الأمر لا يقفل دونها أبوابه، وأن من خيرة أبنائها خير عماله.

كان من عمال عمر بن عبد العزيز: معلموه وقضاته، وكان جده عمر بن الخطاب يستشير حضاره ويتحسس الأخبار، ويسعى إلى خارج المدينة ينتظر البرد، والمسلمون يخوضون ساح القتال في الشرق والغرب.

ومن عدل عمر بن عبد العزيز وشورى علمائه لم يجد فقراء في المدينة – أي في الحجاز – ولا في أفريقية ليوزع عليهم الصدقات.

المبحث الخامس

ضمانات لأهل الذمة

أهل الذمة هم أهل العقد. وعقد الذمة عهد بالضمان والأمان. ويسمى المعاهد ذميا بمعنى صاحب العهد بالضمان والأمان. وفي العهد جوار وضمان. ويقول عليه الصلاة والسلام (يسعى بذمتهم أدناهم) أي بأمانهم. والذمام الحرمة. وأذمه معناها أجاره.

كان أول عمل سياسي لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة تأمين الطريق منها إلى البحر الأحمر؛ فلذلك عاهد قبائل جهينة وغفار، وبني خمار:

ثم عاهد اليهود وغيرهم بالمدينة على الأمان وحسن السيرة، والاحتكام إليه في نصوص خاصة بأهل المدينة واليهود بفئاتهم الثلاث: (بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة) منها قوله:

"وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حديث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره".

"وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.. وأن الله (جار) لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله" (٣٠٨).

وفي هذا الإطار وردت معاهدات رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه تقول معاهدة أهل "أيلة" (هذه أمنة من الله ومحمد رسول الله لأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم "ذمة الله وذمة محمد النبي" ومن كان معهم).

وفي صلح الحديبية تصالح الطرفان على وضع الحرب عشر سنين (يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من قدم مكة حاجا أو معتمرا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله وأن من قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو إلى الشام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله).

---

(٣٠٨) فالجوار خفارة، والذي يجير هو الذي يؤمن أو هو الحليف، والجار: الزوج. قالوا "كان ابن عباس ينام بين جارتيه، أي زوجتيه" وأجار الله: أنقذه.

فالأمان أشكل بأمان أهله أيلة: أمان على النفس، وفي الحل والترحال وطلب الرزق في مصر أو الشام. ولا ريب أنها المرة الأولى التي تدخل الرحلة إلى مصر والرزق فيها – أمان الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وأصبحت أحب الصيغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمتعاهدين معه أن يضع الناس "في الذمة الله ورسوله" كعهده صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران.

يقول في عهده لنصارى نجران: "ولأهل نجران" ذمة الله وذمة رسوله "على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم.. ولكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير..".

ولما استخلف المسلمون أبا بكر بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام جاءه نصارى نجران فكتب لهم.. وفاء بكل ما كتب لهم محمد النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذه الصحيفة "جوار الله وذمة رسوله".

والرسول هو القائل: "من آذى ذميا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله" ويقول: من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار".

وكان يبرأ إلى الله ممن قتل ذميا.. أو كافرا، ويعلن: "من آذى ذميا فأنا خصيمه يوم القيامة" و"من ظلم معاها أو انتقضه، أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا خصيمه يوم القيامة" و"من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة".

وكانت له منن في التعامل معهم، فكانوا يسلمون: هذا جار [٣٠٩] يهودي يضع الأشواك والقاذورات في طريقه صلى الله عليه وسلم وانقطع ذات يوم عما دأب عليه، فسأل عنه، فقيل: مريض، فزاره، وأسلم اليهودي. كما أسلم اليهودي الذي وفاه رسول الله دينه وزاده.. وأسلم اليهودي الذي قاضى عليا على درعه، أسلم إذ رأى آية العدالة في قاضيه.

وحرص المسلمون على الوفاء بالعهد للعدو حين قرب معاوية جنده من حدود الروم استعدادا للرد عليهم إذا نقضوا عهدهم معه، فخف إليه عمر بن عنبسة يقول له: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشده عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء" فتراجع معاوية بالجند.

---

(٣٠٩) وجوار المسلم عزيز: أراد جار لسعيد بن العاص بيع دار، وعرض المشتري مائة ألف درهم. قال البائع: وما ثمن جوار سعيد بن العاص؟ وعلم سعيد، فبعث للرجل بمائة ألف درهم واستبقاه في جوار، أي في دار.

ولقد ولي الذميون الوظائف للخلفاء ومنهم "أسبق" عرض عليه عمر الإسلام ورفض، قال عمر: لقد أردت أن أستعملك في بعض أمور المسلمين وكان أمير المؤمنين علي يقول: "من كانت له ذمتنا فذمته كذمتنا".

فلا تعجب إذا قرأت قوله للأشتر النخعي عن المصريين: إنهم "إما أخذ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق" وأن يكرر المعنى ذاته للوالي الذي ولاه بعده (محمد بن أبي بكر).

وقد ورد في صحيح مسلم عن أبي ذر قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا فتحتم مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما".

وأخرج عبد الرحمن بن عبد الحكم في فتوح مصر عن أشهب، عن مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن كعب بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما".

وأخرج أيضا قول أمير المؤمنين عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا، فذلك خير أجناد الأرض.. قالوا: ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة".

***

ولما نفذ عمر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يبقى في جزيرة العرب دينان أهمه الحرص على إيتاء أهل نجران حقوقهم، وأشهد على وثيقة حقوقهم عثمان، فحملها عثمان، ثم حملها علي رضي الله عنهم.

فلم يأمر عمر بإجلائهم دون ضمانات، بل أعطاهم عهدا نص على عهدي الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وأن لهم ذمة، وأصدر بحقهم أمرا لكل صاحب سلطان. قال بعد البسملة: (هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لأهل نجران) من سار منهم آمن بأمان الله، لا يضره أحد من المسلمين، وفاء لهم بما كتبه لهم النبي محمد، وأبو بكر – فمن مروا به من أمراء الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض.. لا سبيل عليهم فيه لأحد، ولا مغرم، فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم، فإنهم أقوام لهم "ذمة" وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا).

وجدد العهد عثمان، وجدده علي. ودخل مصطلح "أهل الذمة" في لغة الدولة والفقه وجرت على الألسن مصطلحات المساواة والحرية: لهم مالنا وعليهم ما علينا. وأمرنا بتركهم وما يدينون.

وعهد عمر لأهل بيت المقدس أنموذج كاف صادر من عمر رضي الله عنه.

ولم يكد عبد الله بن أبي سرح يفتح مصر إلى النوبة (في جنوبها) حتى صالح ملك النوبة على أمان وهدنة جارية "مستمرة" مع "أهل الذمة".

***

ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم دية الذمي كدية المسلم: ألف دينار، وحملها عاقلة القاتل، مثلما تتحمل العاقل دية المسلم. وهذان مساواة وضمان.

وفي آخر القرن الهجري الأول احتاج خامس الخلفاء الراشدين (عمر بن عبد العزيز): إلى سؤال الحسن البصري وقد ولي القضاء له: ما بال الخلفاء الراشدين تركوا أهل الذمة وما هم عليه من نكاح المحارم؟ واقتناء الخنزير؟

وأجابه الحسن البصري جوابا لا تجده إلا في سماحة الإسلام، قال: إنما بذلوا الجزية ليتركوا وما يعتقدونه. وأنت متبع لا مبتدع.

وأمر عمر بن عبد العزيز واليه عدي بن أرطأة أمرين كلفه بأن يقرأهما على الناس بما يشبه إعلان الحقوق:

١- انظر من كان عندك من "أهل الذمة" وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت المال ما يصلحه.

٢- بلغني عن أمير المؤمنين عمر أنه مر بشيخ من أهل المدينة يسأل على الأبواب، فقال: "ما أنصفناك.. إلخ ما ورد في هذا الأمر.

وإنما أمر بقراءة الأمرين على الناس ليعلم كل أهل الذمة بهما، وليجعلهما لزاما على الحكام، والناس.. وهي سياسة دولة رسالة دينها رسالة لكل الناس.

٣- وفي الجزية ذاتها ذهب خامس الخلفاء الراشدين إلى أبعد الحدود إذ كتب إلى واليه عبد الحميد بن عبد الرحمن يوم أخبره أن أموالا بقيت في بيت المال، فأمره أن يسدد ديون الغارمين، فصنع وبقي مال، فأخبره، فأمره أن يزوج منه المستحقين للزواج فصنع، وبقي

مال، فأخبره، فأمره أن يدفع الجزية عمن تأخروا في دفعها.. وهذا صنيع لا تجده إلا في سماحة الإسلام.

وهذان أمران آخران تمتاز بهما سماحة الإسلام من أي نظام دولي حتى الآن:

١- لقد أباح الرشيد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة لجاثليق النصارى أن يقيم في بغداد عاصمة الدولة وأن يباشر في سلطانه في الدعوة الدينية، وأن يرسل المبعوثين بها حتى بلاد الصين.

٢- واستفتى الرشيد قاضيه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وتلميذ مالك وشيخ الشافعي في أمر بني تغلب (نصارى الشام) [٣١٠] إذ عاهدوا أمير المؤمنين عمر على ألا ينصروا أولادهم، ثم خانوا العهد فنصروهم. قال محمد بن الحسن) (فقلت) إن عمر أمرهم بذلك، وقد نصروا أولادهم بعد عمر، واحتمل ذلك عثمان وابن عمك [٣١١] وهو من العلم بما لا خفاء له عليك. وجرت السنن على هذا، ولا شيء يلحقك في ذلك وقد كشفت لك العلم. ورأيك أعلى).

قال الرشيد: مثلي لا يخرج على العلم. ولكنا نجريه على ما أجروه وإن شاء الله جل شأنه. فقد أمر نبيه بالمشورة تماما لما به من الأخلاق.

وفي عصر الدولة العباسية ازدادت رقعة الإسلام سعة وتدفق العلماء من كل الأقاليم والأديان على خدمة الرشيد وبنيه. وكان المسلمون يخصونهم بالتقدير الكبير كما يخصون رجال العلم من المسلمين، بل دخل في هذه الدائرة أصحاب الفنون. ولم يمض قرنان حتى كان في خلفاء الدولة الفاطمية بمصر خليفة، ولابنه خالان جعل أحدهما بطريقا في سورية.

وفي السنوات الأخيرة قدم المرحوم الشيخ إسحاق موسى الحسيني لمؤتمر مجمع البحوث الفقهية بالأزهر بحثا في الفتاوى المقدسية أشار فيه إلى أن مائتي فتوى منها تعلن حسن التعايش

---

(٣١٠) وفي كتاب المغني ٨/ ٤/ ٤٠١: (قال عبادة بن النعمان التغلبي لعمر) يا أمير المؤمنين، إن بني تغلب قد علت شوكتهم، وإنهم بإزاء العدو، واشتدت مئونتهم، فإن رأيت أن تعطيهم شيئا فافعل. فصالحهم عمر على ألا يغمسوا أولادهم في النصرانية).

(٣١١) ابن عمك مقصود بها أمير المؤمنين علي، وقد ولي الخلافة بعد أمير المؤمنين عثمان. وكان من مفاخر بني العباس أن يقال لهم: إنهم أبناء عم علي. فقد جاءوا إلى الحكم بهذه الدعوة.

بين الذميين والمسلمين في جميع العصور منذ فتحت بين المقدس للإسلام حتى حل زمن الانتداب البريطاني في أوائل القرن العشرين للميلاد.

الفرع الثالث

حقوق العدو وضماناتها

القتال للدفاع، وليس لشن الحرب

المبحث الأول

حقوق العدو: من اليهودية والمسيحية إلى الإسلام

جاء بالإصحاح العشرين من سفر التثنية ١٠ – ١٦ بالتوراة:

(حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك وفتحت فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير. ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها. فإن دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما الناس والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة – كل غنيمتها – فتغنمها لنفسك. وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك.. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي أعطاك الرب إلهك فلا تستبق فيها نسمة ما..).

والمسيحية لا تبيح التدمير والاستعباد، ولذلك حاربها الرومان حتى جاء القديس أوغسطين فأباح الحرب بدعوى أنها من القضاء "العادل"!! وأباح الرومان المسيحية سنة ٣٣٧م واستمر استعباد الأمم، وتملك النساء والأطفال والبهائم والبلاد المفتوحة.

ولا غرابة في أن يسمى القساوسة والبابوات في أوربة في العصور الوسطى حروب الاستعمار لإدخال الناس في المسيحية (حربا مقدسة) عندما جمعوا الناس في كل أوربة للحروب التي سموها (حروبا صليبية) ليجتاحوا أرض الإسلام طوال مائتي عام، وتتكرر الحملات الصليبية لتصبح ثماني حملات من كل أوربة، ثم تنكشف منهزمة. وتعود الكنيسة لتمثيل الدور ذاته في الأندلس مع أبشع ألوان العذاب للمسلمين!!

والحرب في الإسلام مختلفة كل الاختلاف في غاياتها ووسائلها..

هي – أولا – غير مشروعة، إلا أن تكون دفاعا عن النفس.

وهي استثناء، وهي مقيدة بقيود الله ورسوله، وقد دافع بنفسه عن الإسلام في سبع وعشرين غزاة، وأنفذ العشرات من سراياه، تقيدها هذه القيود على مدى سنوات حياته في العقد الأول من القرن الهجري الأول، فأصبحت قوانين للحرب الإسلامية.

إليك في مقابلة النص الذي نقلناه آنفا عن تدمير المدن وسفك الدماء والذبح وقائع حكم قضائي في القرن الأول: ذلك يوم جاء وفد من سمرقند إلى دمشق يشكون للخليفة قائده (قتيبة بن مسلم) فعين لهم قاضيا هو (جميع بن حاضر الباجي) فسمع لاشكوى وقضى لهم بأن يجلو الجيش عن مدينتهم وأن يعودوا إلى مساكنهم، وأن تسلم لهم حصونهم.. وأن "ينبذ" القائد إليكم كنص القرآن: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ** ﴾ (٣١٢).

وعادوا إلى ديارهم فرحين بالعدل الإسلامي، ونفذ قائد الجيش الحكم بالانسحاب، ورأى أهل المدينة عدل الإسلام فعلا يفعله القائد المنتصر، فانقلوا يهتفون للعدل وللقائد، يقولون مرحبا بكم. ودخلوا في الإسلام وافرين.

إليك فيما يل بعض نصوص الكتاب الكريم، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول تبارك وتعالى:

١- ﴿ **فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ (٣١٣).

٢- نزل الإذن بالقتال على الرسول بالمدينة، في سورة الحج ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ (٣١٤).

---

(٣١٢) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٣١٣) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

(٣١٤) سورة الحج: الآيات ٣٨ – ٤٠.

٣- والفتح المبين في الإسلام هو فتح "بالسلام" والصلح يوم الحديبية، وبهذا قوله تعالى عنه: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً** ﴾ [٣١٥] وقد أتبعه رسول الله رسائله للملوك بالدعوة للإسلام، وتتابعت بعهده انتصارات الإسلام وفتوحه في داخل جزيرة العرب وفي سائر العالم.

٤- ويقول صلى الله عليه وسلم لآخر قواده: "ولا تتمنوا لقاء العدو..ولكن قولوا: اللهم اكفناهم بما شئت، اللهم نحن عبادك وهم عبادك.. ونواصيهم بيدك وإنما تفنيهم أنت".

٥- وأمر الله في سورة الأنفال بالسلم إذا جنح لها العدو [٣١٦].

٦- ويأمر صلى الله عليه وسلم في خطبة أخرى: "ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تنتهكوا سترا ولا تكشفوا عورة، ولا تدخلوا دارا، ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن..".

٧- فلنلاحظ أنه لا يحل غنيمة إلا فيما كان مع المحاربين لهم، وأنه يحرم عليهم أن يدخلوا دورهم، فملكيتهم مصونة أينما كانت، إلا ما يحمله المحارب في الميدان.

ويتصل بهذا المبدأ أن غير المتورطين في الحرب غير محاربين، إلا أن يكونوا على اتفاق مع المحارب.

٨- وأنه يحافظ على النساء – وإن شتمن – والعجزة والأطفال والشجر والدواب ومن لا يحاربون.

٩- ومن مشكاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبي بكر لقائده: (ولا تقاتل مجروحا، فإن بعضه ليس منه، واقبل علانيتهم، وكلهم إلى الله في سرائرهم، ولا تجسس عسكرك فتفضحه، ولا تهمله فتفسده).

١٠- وأوامر علي لجيشه: (لا تقاتلوا القوم حتى يبدوءوكم فإنكم – بحمد الله – على حجة، وترككم لهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا، ولا تجهزا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل).

ولما تصدى محمد بن الحسن لفقه الحرب كانت حروب أمير المؤمنين علي أداة فقهه.

---

(٣١٥) سورة الفتح: الآية ١.

(٣١٦) سورة الأنفال: في الآية ٦١.

١١- ومن أوامر الفاروق عمر لقائديه: سعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح فاتحي فارس والشام في هذا الباب.

١- (إن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب.. (و) أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم يكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم.. ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله.. فاسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم).

٢- (فإن لاعب أحد منكم بأمان أحدا من العجم بإشارة أو بلسان، وكان الأعجمي لا يدري ما كلمه به، فأجروا ذلك مجرى الأمان. والوفاء الوفاء [٣١٧] فإن الخطأ مع الوفاء تقية، وإن الخطأ بالغدر هلكة).

---

(٣١٧) جاء في كتاب (فقه السنة) للشيخ/ سيد سابق ٣/ ٦٧٣: أن أمير المؤمنين عمر دعا الهرمزان ليحاكمه على انتقاضه على المسلمين مرة بعد مرة. فاستسقى ماء، وجئ بقدح، فتسلمه بيد ترتعش وقال: أخاف أن أقتل وأنا أشرب. قال عمر: لا بأس بك حتى تشربه، فلم يشرب، وقال أردت أن أستأمن. قال عمر: إني قاتلك. قال الهرمزان: لقد أمنتني. قال عمر: كذبت. قال أنس بن مالك: لقد صدق يا أمير المؤمنين. قلت لا بأس عليك حتى تشربه. وقال من حوله مثل ذلك. فامتنع من قتل الهرمزان. وسيشارك الهرمزان في قتل عمر فيما بعد!!

المبحث الثاني

القانون الدولي الإسلامي

لا تفاوت بين سماحة الإسلام نحو أهل الذمة، وبين سماحة الإسلام في وقائع الحروب، أو سماحته مع كل أهل الأرض، والرسالة الخاتمة تتأخى القانون الدولي كما يأمر به الله سبحانه. فهي أولا أخيرة الرسالات، وهي بعد موجهة للبشر جميعا، تشرحها سنن الرسول قولية وفعلية بتشريع لم يخرج عنه المسلمون في حرب أو سلم، نختار منها هنا أمثالا:

١- منها قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾ (٣١٨).

٢- ومنها قوله: ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ (٣١٩).

٣- وقوله: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ** ﴾ (٣٢٠).

٤- وقوله: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** ﴾ (٣٢١).

وقد طبقها العالم الإسلامي بقة طوال قرون أربعة عشر: في آسيا، وفي أفريقيا، وفي أوربة. وكلها دلائل على أن الحروب الإسلامية ذاتها فتوح "بالسلام" على العالم.

٥- ومن شكر المسلمين لله عند النصر أن يتخذوا البر بالأسرى آية الشكر له، فكانوا يطعمونهم طعامهم، ويؤثرونهم به على أنفسهم، لقوله تعالى – عن الأبرار –: ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً (٩)** ﴾ (٣٢٢).

وكانت المساواة بين الأسرى – كالمساواة بين الناس – حقا لكل أسير، فلا ينماز أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم من سائر الأسارى.

---

(٣١٨) سورة الإسراء: الآية ٣٤.

(٣١٩) سورة المائدة: الآية ٨.

(٣٢٠) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٣٢١) سورة التوبة: الآية ٦.

(٣٢٢) سورة الإنسان: الآيات ٧ – ٩.

٦- والجزية من مقابل الدفاع عن أهل البلد المفتوح، فإن أسلموا سقطت؛ لأنهم يشاركون في الدفاع عامة المسلمين، وإن عجز المسلمون عن الدفاع ردوا لدافعيها ما دفعوه، وكان أهل الذمة يدعون للمسلمين بالنصر على أمثالهم من المسيحيين المحاربين.

٧- وفي العفو والصفح عند إخلال المتعاهدين بالعهد أمثال يتحدث بها التاريخ.

٨- لما جئ أمير المؤمنين علي بموسى بن طلحة، قال: استغفر الله.. وما وجدت في عسكرنا من سلاح لك فخذه..

ولما طعن ابن ملجم أمير المؤمنين أمر بألا يعذبوه.

ولما أوفد النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة يحاسب يهود خيبر حاولوا رشوته فنهرهم وأضاف (لا يمنعني بغضي لكم أن أعدل فيكم).

٩- واليهودية تمجد الحرب، والإسلام لا يبيحها إلا لمن يدافعون عن أنفسهم وأموالهم، واليهود والمسيحيون يقولون: إن الأنبياء لا يكونون إلا منهم.

١٠- والإنسانية تتجلى بعد الانتصار على العدو، في المعاهدات التي عاهد بها رسول الله في حروبه. واقتدى به الخلفاء فكان الفتح فتحا بالإسلام، لا فتح غزي جبارين.

١١- الرب في المسيحية رب السلام، لكن القديس أوغسطين (٤٣٠) والكنائس من بعده فتحوا للأباطرة أبواب الحروب، وفي بعضها ذبح الغزاة المسيحيون (٥٠ ألفا من أهل القدس) ومع ذلك عفا صلاح الدين عن أبنائهم عندما استعاد القدس للإسلام.

١٢- وفي القرن التالي جاء "القديس" أو الملك لويس التاسع بأهله يغزو مصر، فأسرتهم مصر وأحسنت جوارهم، ومع ذلك عاد يغير على أرض الإسلام في أفريقية حيث مات.

الفرع الرابع

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمان يشترك فيه الجميع

المبحث الأول

ضمان يشترك فيه الجميع

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانان تشترك الأمة في أدائهما:

والمعروف: يشمل كل ما أمر الله بعمله، سواء بالوجوب أو بالندب.

والمنكر: كل ما أمر الدين بتركه، سواء بالنهي أو بالكراهة.

وبهذا تدخل كل فضيلة، وتمنع كل رذيلة، في تكاليف للفرد أو لمجتمعه، يقول الله تعالى لعباده: ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (٣٢٣).

ويقول: ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (٣٢٤).

ويقول سبحانه: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ (٣٢٥).

ويتحصل من مجموع التفاسير أن "الخيرية" التي نص عليها مردها إلى أنها الأمة "الشاهدة بالحق، العادلة في الحكم على غيرها".

---

(٣٢٣) سورة آل عمران: الآيتان ١٠٣ – ١٠٤.

(٣٢٤) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٣٢٥) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

والوسط: "العدل أو المثل الذي يقاس عليه: أو يحتذى به كالفضيلة، وهي وسط بين طرفين، والأمة بتركه، فتكون الأمة مجتمعة أمة معروف تنهى عن المنكر، ويؤيد ذلك المعنى الأخير أن الله تعالى ذم الذين لا يتحاضون على طعام المسكين، فلا يجعلونه قضية عامة تتحملها الأمة. وذم الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه.

والفقه في هذا التكليف فريقان:

الأول: يراه فرض عين، على كل فرد، ومن هذا الفريق مفسرون قدماء كابن كثير، ومفسرون محدثون كالإمام محمد عبده، وتلميذه رشيد رضا، ليتبادر به كل إنسان للحفاظ بنفسه على المجتمع، وأداء ما يجب عليه من طاعة الله في نفسه ومجتمعه.

والثاني: عليه الجمهور، يرونه فرض كفاية، إذا قام به بعض الجماعة سقط عنها وهذا الفريق أيضا يراه فرض عين على من يعرف في نفسه صلاحا وقدرة للقيام به دون ضرر له.

وابن نجيم يخص بذلك حالة مباشرة المنكر بقوله: (قالوا: لكل مسلم القيام بذلك حال مباشرة المعصية، أما بعد ارتكابها فليس ذلك إلا للحاكم).

يقول أبو بكر بن العربي (٥٤٣ هجرية) في كتابه "أحكام القرآن": (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أصل الدين وخلافة المسلمين).

وابن تيمية وابن القيم يقولان: (جميع الولايات الإسلامية مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

وصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم يقول لأمته: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".

وليس عدم الاستطاعة هنا ضعف إيمان، وإنما هو عجز عن الأداء؛ ولذلك يتعين على من استنكر بقلبه أن يقر في يقينه الاستنكار الكامل للمعصية، حتى لا يصبح متهاونا في إيمانه، وكثيرا ما صنع الاستنكار باللسان خيرا للأمة، وبقيت المقولات الناصعة مبادئ تضئ بالفضائل، وبقي التغيير باليد واجبا على القادر المختص.

والتغيير محدود بواقعة أو وقائع يتراءى فيها من الفور مبلغ ما يزال من معصية، وعلى ذلك ورد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم محيطا إحاطة التشريع، وفيه رحمة بالأمة ونبذ للمعصية، وهو ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ (٣٢٦).

ومن الشروح: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عندما يكون محقق النفع، ودون ضرر لمن يقوم به، وقد يستحب إذا لم ينفع ولم يضر، ففي ذلك إعلان لشعائر الإسلام.

وإن السلطان وحده هو الذي يزيل المنكر بالقوة، حتى لا تكون فتنة.

قال واحد من حضار مجلس أمير المؤمنين عمر لآخر يجادل عمر: تقول هذا لأمير المؤمنين؟ فعاجله عمر بقوله: دعها فليقلها لي، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.

ولقي الإمام أحمد بن حنبل الأهوال لقول الحق في مواجهة خلفاء بني العباس، في حين سكت الجميع، وفي ذلك يتناقل الناس المقولة الذائعة: (شذ الناس كلهم إلا أحمد بن حنبل).

ولما ضبط أمير المؤمنين عمر قوما على شراب جابهوه بأنه يتجسس فتراجع ولم يقم الحد.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حق لكل إنسان على كل قادر، ومن ذلك:

١- الأخذ على يد الظالم بكفه عن الظلم، أي: في إقامة العدل.

٢- تيسير حد الكفاية للجياع والمساكين بالصدقات التي لا يمكن إحصاؤها من إعطاء وإغناء في العطاء.

٣- الجهاد في مجمله فرض كفاية إلا على من تعين عليه، أو في حالات الدفاع عن الأمة.

---

(٣٢٦) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

المبحث الثالث

الدستور الإسلامي

في عام ١٩٨٠م كلف مؤتمر الدول الإسلامية وكانت في عضويته نيف وأربعون دولة، نيف عددها على خمسين الآن – وزراء خارجية دوله وضع دستور إسلامي، فوضوعه، وأصدره من القاهرة سنة ١٩٩٠م مشتملا على ٢٤ مادة في أكثرها فقرات متعددة، وله ديباجة تعلن انطلاقه من "توحيد الخالق" سبحانه وتصديق رسله عليهم السلام "وتوكيد الدور الحضاري الذي قدمته الرسالات للإنسانية".

وهو دستور يوضع لأول مرة يصدره نيف وخمسون دولة بعد سنوات عشر من تكليف وزراء الخارجية للعالم الإسلامي الذي تحكمه نظم ملكية، أو سلطانية أو جمهورية، وهو جدير بالتأييد، يرجى منه أن يزيد، وبخاصة فيما يتعلق بنصه على "الشورى". والقرآن الكريم يقررها في السورة الشورى ٣٨ وقد نزلت بمكة قبل قيام دولة الإسلام حيث ترد الشورى حقا للجماعة على أولي الأمر، يقول تبارك وتعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾ (٣٢٧).

ولما قامت الدولة الإسلامية أصبحت "الشورى" فرضا واجبا على ولي الأمر وحقا للجماعة عليه وله عليها.

وبالشورى تجتمع الأعنة في يديه، وبها جرت سنن الرسول صلى الله عليه وسلم.

***

في ختام هذا الفصل شذرات عن بعض القيم العليا في الإسلام نعم بها المسلمون وغير المسلمين مضافة إلى ابتغاء الحلال واتقاء الحرام، وأداء الفروض والعمل الصالح، نجد صورة مصغرة لمجتمعات ودول تتابعت على وجه كرة الأرض خمسة عشر قرنا مستمسكة بدينها وقيمه، أو مطالبة باستكمال أداء هذه القيم أو إحسان تطبيقها، حكاما أو محكومين، وعلماء وخطباء وخاصة وعامة، سعداء بما كفلته لهم شريعة الإسلام من ضمانات أضاءت ظلمات العصر

---

(٣٢٧) سورة الشورى: الآية ٣٨.

الوسيط، وفتحت أبواب التقدم للعالم، وما تزال أضواؤها تنير الطريق لها وللعالم. ولزام علينا في هذا المقام أن نسجل حقيقتين:

الأولى: أن أوروبة عايشت المسلمين في المشرق قرنين كاملين في الحروب الصليبية وثمانية قرون في المغرب (أسبانيا) وجزر البحر الأبيض، ونقلت علوم المسلمين واستيقنت من حضارتهم وقامت بإصلاحاتها الدينية، وأقامت دولها الحديثة على أنقاض الإمبراطورية الرومانية فاستبقت من تراثها الوثني أداة "الاستعمار الجهنمية" بالغزو أو الاحتيال أو الشركات التجارية أو بالسيطرة العلمية أو الصناعية. ولما غزا نابليون مصر كان مع جيشه "أكاديمية علمية كاملة".

والأخرى: أن أداة الاستعمار الجهنمية كانت تستغلظ وتتعاظم في حين كان الإسلام يدخل كثرة الأمم التي تدين به الآن على أيدي القوافل التجارية، يتبادر إليه الناس في هذه الأمم لما يلمسونه في معاملاتهم من نزاهة اقتصادية وطهارة خلقية. وسجل التاريخ العالمي للإسلام أن قواعده الاقتصادية والاجتماعية أداة انتشاره.